

تجليات التناس في الشعر الجزائري الحر

د. غنية
لوصيف

جامعة البويرة

ملخص المقال

إن التناس هو تفاعل النصوص أو تداخلها (قديمة أم حديثة، شعرا أم نثرا...) ضمن النص الحاضر، بحيث تكون هذه النصوص منسجمة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها الكاتب في نصه، وهكذا يصبح النص الحاضر محط ترحال عدد لا نهائي من النصوص الغائبة. من هذا المفهوم الحديث للتناس الذي يعطي دلالة جديدة للنص السابق لأنه إعادة إنتاج نصوص وليس مجرد نقلها من سياق إلى آخر، فإنني سوف أقوم بدراسة هذه الظاهرة لإبراز تجربة الشعراء الجزائريين ومدى تأثير هذا النوع من خلال التداخلات النصية التي حدثت بين قصائدهم الحرة مع مختلف النصوص الأخرى سواء كانت دينية أم تاريخية أم أدبية. **الكلمات المفتاحية:** التناس، التناس الديني، التناس الأدبي، التناس التاريخي، الشعر الحر.

Le résumé de l'article :

L'intertextualité est l'interaction ou le chevauchement des textes (anciens ou modernes, de la poésie ou de la prose ...) au sein du texte actuel, de sorte que ces textes soient cohésifs et signifiant autant que possible l'idée exposée par l'auteur dans son texte, de sorte que le texte actuel devienne l'objet de Voyage d'un nombre infini de textes absents.

De ce concept moderne de l'intertextualité qui donne une nouvelle signification du texte précédent, car il est une reproduction des textes et non un simple transfert d'un contexte à un autre, j'étudierai ce phénomène dans le but de souligner l'expérience des poètes algériens et l'impact de ce genre à travers les interactions textuelles qui ont eu lieu entre leurs poèmes libres avec divers autres textes que ce soit Coranique, historique ou littéraire.

Mots-clés: intertextualité, intertextualité religieuse, intertextualité littéraire, intertextualité historique, poésie libre.

اختلفت الدراسات النقدية في تحديد مفهوم التناص وإعطاء الجذور التأصيلية لهذا المصطلح، فهناك من يرى أنه مولود غربي ولا يمكن أن ينسب لغيره، وهناك من خرج عن حيز هذه الفكرة من خلال العودة إلى جذور الثقافة العربية رغبة في إصال مفهوم التناص إلى نسبه الحقيقي، وأن ظهوره إلى الساحة الغربية لم يكن إلا عن طريق التبني، بحيث أعطت المحاولات النقدية التي احتكت بالموروث الثقافي العربي القديم مدى احتواء هذا الأدب على ظاهرة التناص.

وقد حدد هذه الظاهرة الكثير من الباحثين أمثال الناقد الروسي "ميخائيل باختين Mikhaïl bakhtine" الذي استخدم مصطلح الحوارية (الديالوج) وتعددية الأصوات (البوليفية) دون أن يستعمل مصطلح التناص⁽¹⁾، ثم تتبعته الباحثة البلغارية "جوليا كريستيفا Julia kristiva" رصد هذا المصطلح في مؤلفها "علم النص" حيث تقول: "النص ترحال لنصوص وتداخل نص في فضاء نص معين تتقاطع وتتفاى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"⁽²⁾، أي أن ثمة عملية مستمرة تحكم عالم النص الذي يأخذ من النصوص السابقة عليه ويتشاكل معها.

وبالرغم من هذه الجهود بقي التناص في حاجة إلى صياغة جديدة، وهذا ما تحقق مع "جيرار جينيت Gerard Genette" الذي كان من أكثر النقاد عناية بالتناص فأعطاه نفساً جديداً، حيث قعد له وبوبه ووضع لكل باب آلياته وخلفياته المعرفية والنظرية، وجعله واحداً من بين مجموعة من العناصر التي تندرج تحت ما يسمى بالمتعاليات النصية التي تتصف بالشمولية والدقة والمرونة.

أما التناص في الأدب العربي فقد مر ببدايات غنية وتحت مسميات مختلفة: السرقة، الأخذ، المعارضة، الإشارة... ثم عاد للظهور من جديد كمصطلح قائم بذاته له أصوله ونظرياته، ونتيجة لاختلاف الترجمات وقع الباحثون العرب في إشكالية المصطلح، فهذا "محمد بنيس" يسميه "التداخل النص"، و"محمد مفتاح" يطلق عليه "التعلق النصي"، و"عبد الرحمان بسيسو" بـ"الحوار بين النصوص"، وسعيد يقطين بـ"التفاعل النصي"، وابراهيم روماني بـ"النص الغائب"...

فالنص الشعري المعاصر إذن هو نص تناصي بالدرجة الأولى، لا يمكن فهمه دون الرجوع إلى عشرات النصوص التي سبقته، لأن وجود كل نص يفترض بالضرورة وجود نص أخذ منه أو تولد عنه.

من خلال هذا المفهوم للتناص سنقوم بدراسة هذه الظاهرة لإبراز تجربة الشعراء الجزائريين ومدى تأثير هذا النوع من خلال التداخلات النصية التي حدثت بين قصائدهم الحرة وبعض النصوص الأخرى على اختلافها (دينية – تاريخية – أدبية).

1- التناص الديني:

يعد الموروث الديني مصدرا هاما من مصادر التناص عند الشعراء الجزائريين المعاصرين ، ، ف" ليس غريبا أن يكون الموروث الديني مصدرا أساسيا من المصادر التي عكف عليها الشعراء المعاصرون ، واستخدموا فيها شخصيات تراثية عبروا من خلالها عن بعض من تجاربهم الخاصة"(3)، ويعتبر القرآن الكريم وغيره من المصادر الدينية أهم روافد القصيدة الحديثة من ناحيتي الشكل والمضمون، فالقرآن الكريم يظل "دائما نصا مقدسا عند الشاعر المعاصر يتعلم منه ويحلم به، فهو منتهى البلاغة ومستقبل الكتابة مهما كان نوعها وتاريخها"(4).

* إichاءات التناص القرآني عبر شخوص القصة الدينية:

1-1- آدم عليه السلام الصورة الموحية لمعنى الوجود والانتماء:

وقف الشاعر هنا أمام أول شخصية ظهرت في هذا الوجود وهي شخصية "آدم عليه السلام" التي تميزت بأبعاد خاصة مستمدة من الذات والواقع، أبعادا تثير جدلا لما تتضمنه هذه الشخصية من متضادات حياتية ترتبط بالوجود الإنساني (الفناء والبقاء، السعادة والحزن...)، يقول الشاعر:

"قبل أن يكتب الله في أرضنا ترف الأولين

على بذخ الكبرياء

وقبل أي جفاء على شاطئ القلب

في ندم كامل في الجهات

توسد آدم حلما جميلا بأبعاده في الفؤاد"(5)

ويأتي ذلك بالتناص مع الآية القرآنية "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ".(6)، لقد استأنس الشاعر هنا بهذه الشخصية لما لمسها فيها من قواسم نفسية مشتركة بينه وبينها، حيث تصطدم بوجدانه وتقارب أفكاره مما أكسب النص الجديد ملامح خاصة تقارب بين الشخصيات الإنسانية ولو بعد الزمن بينها.

1-2- قابيل وهابيل تجسيد للصراع بين الخير والشر:

وظف الشاعر "فاتح علاق" في قصيدته "القلب يرسم دورته" قصة قابيل وهابيل توظيفا رائعا يلفت الانتباه، فقد وجد في هذه القصة ما يكشف عن المعاناة لكل قضية من القضايا المحورية في هذا القرن، لأن علاقة هذين

الشخصين علاقة سلبية تصور أول جريمة وقعت على وجه الأرض والتي مهدت السبل إلى كل الجرائم ماضيا وحاضرا⁽⁷⁾، يقول الشاعر:

"هذا زمان الدم

قابيل يقتل هابيل

أوديب يقتل لاووس

فاهرب إلى جثة واحتجب"⁽⁸⁾

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)"⁽⁹⁾.

"قابيل وهابيل" هما شخصيتان ذكرتا في العهد القديم، وهما أول ابنين لآدم وحواء، كان قابيل عاملاً بالأرض أما هابيل فكان راعياً للغنم، وفي يوم قررا أن يقدمَا صدقة قرية إلى الله سبحانه، فتقبل الله صدقة هابيل لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل صدقة قابيل لسوء نيته وعدم تقواه، فقال قابيل - على سبيل الحسد - لأخيه هابيل (لأقتلنك) بسبب قبول صدقتك ورفض قبول صدقتي، فكان ردُّ هابيل لأخيه قابيل ردًّا فيه نصيح وإرشاد (إنما يتقبل الله من المتقين)؛ حيث بين له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله ألا وهي التقوى، وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه الله سبحانه، وتطهير قلبه من الحسد، كما ذكره بما تقتضيه وتستدعيه رابطة الأخوة من تسامح، فأخبره أنه إن اعتدى عليه بالقتل ظلماً وحسداً، فإنه لن يقابله بالفعل نفسه خوفاً من الله، وكراهية أن يراه سبحانه قاتلاً لأخيه، بيد أن قابيل لم يستمع لنصائح أخيه، وضرب بها غرض الحائط، ثم انساق مع هوى نفسه، وزينت له نفسه الإقدام على تلك الفعلية الشنعاء، فارتكب جريمته النكراء، فقتل أخاه حسداً وظلماً، فخرس دنياه وآخرته، خسر دنياه لأنه قتل أخاه أقرب الناس إليه رحماً، والأخ سند لأخيه وعون له، وخسر آخرته لأنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها، ولكن قابيل عند "فاتح علاق" في هذه القصيدة لا يتوقف عند قابيل ابن آدم الذي نعرفه، ولكن يتعداه إلى قابيل العصر الذي امتهن حرفة القتل وسلط كل ما يملك لقتل حريات الغير ومصادرة الأفكار وبعث الفساد في الأرض.

1-3- "عاد وشمود" رمز لخيانة عهد الله:

شكلت قصة "عاد وشمود" حيزاً كبيراً في شعر الشعراء الجزائريين فهذا "فاتح علاق" يذكر ما فعلته عاد وشمود بالأنبياء وتكذيبهم لهم، وهو نفسه

ما يحدث في هذا الزمان فقد منعت الأقلام من الكتابة وكممت الأفواه على النطق بالحق وكذبت الناس كما كذبت عاد وثمود نبييها، حيث يقول في قصيدة "انكسارات ربيعية":

"كذبت عاد بالنذر

و راغت ثمود إلى ناقتي

بعد أن ثاب قلبي إلى النهر" (10)

كانت الصورة التي ركز عليها الشاعر في هذه الأبيات مميزة جدا خلقت نوعا من الإيحاء والرمز أعطاها جانبا فنيا خاصا، فقد تجاوز الشاعر مشكلة السرد والحكي، وتقيد بالحدث الأصلي لتلك القصة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: { كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي } (١٨)، وفي قوله: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } (٢٣)، (12)، وفي قوله أيضا: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا } (١١) إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا } (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا } (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا } (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا } (١٥) } (13).

يخبر الله سبحانه وتعالى عباده هنا بعاقبة عاد وثمود الذين كذبوا بالإنذارات والمواعظ التي جاءهم بها نبييها "هود" و"صالح" عليهما السلام، وقد استعمل الشاعر هذه القصة ليثير في المتلقي حافز الثورة والتمرد والإصرار على التغيير فحاول أن يصف أصحاب الرسالات الذين تعرضوا للتكذيب والتسفيه وهذا هو الموقف نفسه الذي يحسه الشاعر من قومه وأبناء بلده حين يطرح عليهم شخص ذو رؤية ثاقبة أفكاره وتوجهاته، فلا يجد منهم سوى موقف المكذب.

وها هو الشاعر "يوسف وغيلسي" في ديوانه "تغريبة جعفر الطيار" يذكر هو الآخر قصة "قوم ثمود" مع النبي صالح عليه السلام فيقول:

"حلمي الأزلي احترام النبوة

مذ عقروا ناقة الله مذ شردوا صالحا

أشهروا في وجوه اليتامى سيوف البطولة

أخطأتني النبوة في البدء.. عاودني الحلم

ورثني والدي خاتم الأنبياء

وأرسلني كالسراب إلى جهة الريح" (14)

يحكي الشاعر هنا أصل القصة حيث ارتكبت الخيانة والمؤامرة (خيانة قوم ثمود لعهد الله)، ومنذ اجتمعت القبائل وتآمرت ضد النبي "صالح" عليه السلام، لكن الله أنقذه من طغيانهم وبطشهم، كما استعمل الشاعر في حلم نبوته رمز خاتم الأنبياء (خاتم سيدنا سليمان عليه السلام) الذي يوحى إلى الحل وانفتاح باب الفرج.

1-4- "يوسف عليه السلام" تمثيل للتجربة الحياتية:

كان لقصة "يوسف عليه السلام" أثر كبير في الشعر الجزائري إلى جانب الشعر العربي ككل، إذ عملت على إثرائه وإغنائه، فالقصة تشتمل على جوانب سيكولوجية هامة⁽¹⁵⁾، قد تكون سببا في حضورها المتميز في الأدب الذي يركز على جوانب نفسية في حياة الإنسان بصورة أساسية، فقد أسهمت شخصية يوسف في تأويل الواقع الجزائري بأبعاده الأنية والمستقبلية على نحو يزيدها عمقا وإثارة. يقول "بوزيد حرز الله":

"حين أقرأ سورة يوسف أستغفر
الذنب ألقى إلى البئر كل الذي سوف
يأتي من المغرضين الأحبة ثم ألوذ
إلى الكهف أركى فضاء يبدد ما في
القصيدة من عتمة"⁽¹⁶⁾

فعندما ذكر الشاعر "ألقى إلى البئر" فإننا نعود لقصة يوسف عليه السلام عندما غدر به إخوته ورموه في البئر، يقول تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ" (٧) إذ قالوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)"⁽¹⁷⁾، فالشاعر قد أجاد التقنع بشخصية يوسف عليه السلام وقصته محاولا منه التعبير عن رفض الواقع الأليم والظلم الذي تعانيه الأمة الجزائرية والعربية عموما، فحاول أن يبيت ذلك من خلال كلماته، فشخصية يوسف عليه السلام تشتمل على تلك العناصر الفنية المتوهجة بكل ملامحها والتي يمكن أن تكون نصا مرجعيا مضيئا وخصبا يتخطى حواجز الزمان والمكان⁽¹⁸⁾.

1-5- غار حراء صدى لعذاب وفقدان الحرية:

ها هو "نور الدين درويش" يستلهم في ديوانه "مسافات" الكثير من مقاطع قصائده من القصص التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، إذ يقول:

"وضعت على كتفي الحمامة بيضها

وعلى فمي نسج الشباك العنكبوت

وتعالّت الأصوات غرد

مثلما اعتدناك من أبدي الدهور"⁽¹⁹⁾

استهل الشاعر هنا قصيدته بقصة "غار حراء" حين هرب الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق من ظلم قريش وجبروت أسيادها فاختبئوا في الغار، فنسجت العنكبوت خيوطها ووضعت الحمامة بيضها على

مدخله، فلما بلغ المشركين الجبل ومروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت وبيض الحمام، قال قصاص الأثر: إن آثار الأقدام قد انتهت هنا (أي عند مدخل الغار). وكان ذلك معجزة من معجزات الله عز وجل لحماية نبيه عليه الصلاة والسلام، وقد رمز الشاعر من خلال هذه القصة إلى فقدان الحرية في التعبير عن الرأي في عصرنا الحالي.

1-6- "الإسراء والمعراج" صورة للانتقال من برزخ الضعف إلى برزخ الكمال:

أما في قصيدة "بكما معا أو لا أسير" من نفس الديوان فيشير الشاعر إلى حادثة "الإسراء والمعراج" ويتحدث عن سفره الذي يشبه العروج وهو يبحث عن نجمتيه فيتخيل نفسه راكبا فوق البراق (الدابة التي كانت تحمل الأنبياء) متجها إلى السماء حيث يتم الانتقال من الضعف والخطيئة إلى الكمال والحقيقة بعيدا عن الأكاذيب والضلالات وتفاهات الأشياء وخداع الأمور، يقول:

"ركبت أه ركبت لا أدري لأي النجمتين أنا أساق
فرأيت في سفري النخيل

رأيت أزهارا وأنهارا و أكوابا دهاقا

ورأيت فاكهة و أبا طعمه حلو المذاق" (20)

يستحضر الشاعر هنا مجموعة من النصوص القرآنية على سبيل التناسل المتناسي، ففي حديثه عن الأزهار والأنهار والأكواب الدهاق فإنه يأخذ ذلك من قوله تعالى في سورة النبأ: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا وَحَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا" (21) أي أن الإنسان التقى الذي يؤدي واجباته ويجتنب المحرمات يفوز وينجو ويدخل الجنة التي يكون فيها كل أنواع الأشجار المثمرة، والكؤوس المملوءة بالشراب الصافي. أما في حديثه عن الفاكهة والأب الحلو المذاق فإنه قد استلهم ذلك من سورة عبس في قوله تعالى: "ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" (22).

ويهدف الشاعر من خلال هذا التناسل مع مجموعة من النصوص القرآنية إلى تكثيف وتأكيذ السورة من خلال جعل كل شيء جميل موجود في طريقه، فهو في سفره لم يجد ما يزعجه ويضايقه، بل على العكس من ذلك كان فرحا سعيدا متأثرا بالمشاهد التي صادفته، متحرقا شوقا إلى اللقاء الذي سيجمعه بالنجمتين أو بإحدهما على الأقل.

2- التناسل الأدبي:

ارتبط الشعر الجزائري الحر بالموروث الأدبي قديمه وحديثه، حيث نجد تناسلات شعرية متناثرة في مختلف الدواوين وعند مختلف الشعراء، ولعل

استحضار الموروث الأدبي قد أكسب هؤلاء الشعراء لغة شعرية تجعلهم يقتربون من منزلة الأقران السابقين من فرسان الشعر العربي، ومن أمثلة ذلك نذكر مايلي:

1-2- الوقوف على الظل من سمات الشعر المعاصر:

يبتدأ "يوسف واغليسي" قصيدته بالوقوف مستعيدا في ذلك ذاكرته الطويلة المليئة ببقايا الجراح والآلام (آلام الضياع والغياب، واليأس من الذهاب دون رجعة)، فالوقوف وخاصة إذا كان في خريف العمر يشبه شجرة الصفصاف تضربها الرياح من كل الجهات وتريد زعزعتها واقتلاعها:

واقف أستعيد بقاء الجراح
في خريف الهوى.. عند مفترق الذكريات..

كصفصافة صمرت خدها للرياح
واقف أتحنس.. ذاكرة اليأس ضمأى

يزيد اشتعال المدى
وبراكيته ما ارتوت من ينباع دمعي
ومن دمي المستباح⁽²³⁾

لعل وقوف الشاعر على أطلال جراحه هو الذي جعله يتناص مع قول
"امرؤ القيس" ويشعر بالشعور نفسه، عندما وقف امرؤ القيس على أطلال
محبوبته وقال:

"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول
فحومل...

كأنني غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحي ناقف
حنظـل

وقوفا بها صحتي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسي
وتجملل⁽²⁴⁾

فتلك الصفصافة التي تحدث عنها الشاعر والتي تحدثت العواصف
والأعاصير هي تمثيل للإنسان الذي يضربه تيار التغيير والاقتلاع من الجذور
فيبقى واقفا وصامدا رغم كل شيء، وهي نفسها سمرات الحي التي تحدث
عنها امرؤ القيس والتي طالما تألم وتحسر تحتها من فقدان أحبابه ومن الأيام
التي مضت بعيدا عنهم مشبهها نفسه بجاني الحنظل الذي يضرب به المثل في
المرارة، وفي هذا يقول مصطفى ناصيف "لماذا وقف امرؤ القيس واستوقف،
ولماذا وقف الشاعر المعاصر واستوقف أيضا، واضح أن الشاعر يرى أن
تيار الشعر محتاج إلى هذا الإيقاف أو المراجعة وواضح أن الشاعر رأى ما
راه امرؤ القيس أن المجتمع يوشك أن يتعرض للخطر وأن الشعراء قد يكونون
صناع هذا الخطر، ولا مفر من نذير إذن⁽²⁵⁾.

2-2- تخاذل المجتمعات الإسلامية صورة لطغاة العصر:

وها هو الشاعر "فاتح علاق" في قصيدة "رؤيا" يعبر عن يأسه وإحباطه، في ظل ما تعيشه المجتمعات الإسلامية من قتل وخراب وسفك للدماء بين المسلم وأخيه المسلم دون رحمة أو رأفة:

"يقبل ليل

ويقضي على البعد ليل

"ظهري روم وبطني روم

على أي جانب أميل"" (26)

ونجد ذلك يتوافق مع قصيدة "ما لنا كلنا جو يا رسول" لأبي الطيب المتنبي التي يقول فيها:

وسوى الروم خلف ظهرك رؤم فعلى أي جانبيك تميل؟ (27)

وتعتبر هذه القصيدة من أشهر القصائد التي قالها المتنبي في سيف الدولة، حيث لم يكن الروم في نظر المتنبي هم الخطر الوحيد على سيف الدولة، فقد كان ثمة عرب يشكلون خطراً، عرب نظر إليهم المتنبي على أنهم روم، وإن كانوا مسلمين اسماً، وقد اتخذ "فاتح علاق" هذه الصورة ليعبر بها عن تخاذل المجتمعات الإسلامية في نصر الضعفاء من المسلمين، فهم مثلهم مثل الدول التي تسعى إلى تدمير كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

2-3- الاختيار بين الحب والطمأنينة أو الحزن والخراب رافداً للتجربة الشاعرية:

يطلب الشاعر "نور الدين درويش" في قصيدة "أغنية الحب والنار" من صديقه اتخاذ موقف صارم وواضح واختيار أحد الطريقين فيما أن يضع حياته في سبيل الدفاع عن وطنه رغم كل الأحزان والظروف السيئة التي تحيط به، أو أن يبقى بعيداً عن هذه الآلام يعيش في عالم تسوده الرومانسية والأحلام، يقول:

"آه لم يبقى إلا اختراق الحواجز

أو ننحني ونولي الدبر

أي الطريقين تختار اختر

فما هدنا غير هذا التردد.."" (28)

وقد استحضر الشاعر في ذلك قصيدة "نزار قباني" "اختاري" التي

يقول فيها:

"اختاري الحب.. أو اللاحب

فحين أن لا تختاري..

لا توجد منطقة وسطى

ما بين الجنة والنار.."(29)

ف"نزار قباني" يطلب من امرأته أن تختار ما بين الحب واللاحب حيث لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار، ويأخذ الشاعر هذا المعنى ويوظفه ولكن هنا يخير صديقه ما بين العيش في الأحلام (الحب، الطمأنينة...) بعيدا عن ما يجري في الواقع، أو بين مواجهة العدو الذي يزرع الحزن والخراب والدمار في أنحاء الوطن، ويستدعي "نور الدين درويش" هذه المعاني لنتمازج مع دلالات النص بما يريده من خلال استخدام الصور المتشابهة بين النصين.

3- التناص التاريخي:

كان للثقافة التاريخية أثر ملموس عند الشعراء الجزائريين، وقد تعددت أبعاد ذلك الأثر من شخوص وأمكنة وأحداث، فكل جانب من تلك الجوانب أثر خاص في أشعارهم، فالنص التاريخي يتكون غالبا من أحداث ترتبط بأزمة وأمكنة محددة لا بد أن تقود مسيرتها عناصر إنسانية ومنها تكتسب أهميتها مؤدية بذلك غرضا معيناً فنياً أو فكرياً أو كليهما معا⁽³⁰⁾.

3-1- قصة شهرزاد وشهريار نموذج لاستبداد الحاكم للمحكوم:

من القصص التي كانت محور حديث الشعراء قديما وحديثا نجد قصة "شهرزاد وشهريار" التي جسدها "نور الدين درويش" في قصيدة "العصا والأفيون" كنموذج عن استبداد الحاكم وضعف المحكوم، يقول:

"قبل الفجيعة دائما بدقيقتين ينام، تهرب شهرزاد
يا شهريار

متى تمل من الدماء؟

متى تكف عن الذنوب؟

مت تتوب؟"⁽³¹⁾

صنع الثنائي "شهرزاد وشهريار" قصص وأساطير "ألف ليلة وليلة" الشائعة في التراث العربي القديم، إذ يعتبر شهريار رمز للرجل المتسلط المتجبر الذي يجد ملاذه في قتل النساء انتقاما لخيانة زوجته له، أما شهرزاد فهي المرأة الوحيدة التي استطاعت أن توقف ذلك المتسلط لتحوّله بذكائها إلى رجل ودود يحن إلى سماع الحكايات القديمة دون ملل، وقد وظف الشاعر هاتين الشخصيتين ليعبر عن طائفة الحكام الذين يستغلون ضعف الأبرياء والمستضعفين من الشعب فيقيدونهم بالقوانين والقرارات الصارمة دون فتح باب للحوار والتواصل.

3-2- حضارة الرافدين صورة للواقع المتجدد والحنين الدائم:

إن الشاعر "الأخضر فلوس" كقارئ للتاريخ لا ينظر إليه من زاوية أنه تاريخ بل ينظر إليه بناظر العصر والمحيط الاجتماعي، فهو يحاول إعادة صياغة الواقع وفقا لما اختزنه الذاكرة من مقومات تاريخية، وقد كانت "حضارة بلاد الرافدين وبغداد" حقلا تاريخيا ثريا في مخيلة الشاعر يحمل عدة دلالات:

وطني..

(وبغداد اسمها قد علم الأسماء..

كل حضارة قد ذقت حليب الرافدين..)

وطني..

وعادت نحو مخبئها (على الكتف الصغيرة..

وهي تتشد أو تصفق باليدين..)"⁽³²⁾

إن استدعاء بغداد وحضارة الرافدين في السياق السابق بما تحمله من دلالات ماضية صورة معاكسة للحاضر والواقع في بعض جزئياتها، فبغداد رغم كل الظروف السيئة التي تمر بها في العصر الحالي (من انقلابات وصراعات) إلا أنها لا تزال مدينة السلام كما سماها الأوائل ومهد النقاء الحضارات القديمة (بلاد الرافدين)، وقد عمد الشاعر إلى ذكرها لأنها قادرة على أن تهمس بعذابات الإنسان المقهور، ورغبته في استعادة كيانه وماضيه.

3-3- الثورة الجزائرية رمز للكفاح والنضال:

قام فاتح علاق في قصيدته "قيامه الشهيد" باستحضار قصة "الحجاج بن يوسف" و"الحلاج بن منصور" وتاريخ الوطن الثوري متمثلا في الشهداء الأبرار:

"مازلت أصرخ في المدى: الموت للحجاج

ما زلت انسج رايتي من جبة الحلاج

فلتصبروا رعي

ولتشفقوا برقي

أنا ديدوش والعربي

أنا زيغوت والحواس

أنا لطفي وبوجمعة

فلتطفئوني إن قدرتم شمعة شمعة"⁽³³⁾

يذكر الشاعر هنا "الحجاج بن يوسف الثقفي" الذي احتل مكانة متميزة بين أعلام الإسلام وصانعي التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة في القيادة والإدارة، وعلى قدر شهرة الحجاج كانت شهرة ما نسب إليه من مظالم حتى عده كثير من المؤرخين صورة مجسدة للظلم ومثالا بالغا لمعاني الطغيان والاستبداد، كما تحدث أيضا عن "الحلاج بن منصور" الصوفي الذي كان

صاحب حيل وخداع، فخدع بذلك كثيراً من جهلة الناس، واستمالهم إليه، حتى ظنوا فيه أنه من أولياء الله الكبار، وقد استخدم الشاعر هنا هاتين الشخصيتين كصورة للعدو الغاشم الذي يتمنى له الزوال والفناء بفضل الشهداء الأبرار الذين حاربوا من أجل نصرة هذا الوطن وإخراجه من منحنته (ديدوش - العربي - زيغوت - الحواس - لطفي - بوجمعة).

انطلاقاً من المفهوم السابق للتناص وجدنا أن لثقافة الشعراء الجزائريين غير المحدودة انعطافاً كبيراً في شعرهم، فقد كان للتناص الديني الأثر الأكبر في تشكيل قصائدهم، وهذا يعبر عن نظرة ثاقبة للواقع ولتفاصيل الحياة، أما التناص الأدبي والتاريخي فلم يبلغا من التأثير في شعر هؤلاء ما بلغه التناص الديني إلا أنه كان لهما أثر في صياغة التجربة الشعرية ونقلها على نحو أعمق.

هوامش وإحالات:

- 1- ينظر محمد عزام، النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، د ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005. ص 26.
- 2- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب 1997. ص 21.
- 3- زايد علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1997. ص 76.
- 4- محمد بنيس ظاهرة الشعر العربي المعاصر في المغرب، دار العودة، ط1، بيروت 1979. ص 267.
- 5- حسين عبروس، النخلة أنت والطلع أنا، منشورات دار الحضارة، ط1، الجزائر 2004. ص 52.
- 6- سورة الأعراف، الآية 26.
- 7- ينظر ناصر الوحيشي، الرمز في الشعر العربي، عالم الكتب الحديث، ط1، اردب - الأردن، 2011. ص 154.
- 8- فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر 2001. ص 59.
- 9- سورة المائدة، الآية (27-29).
- 10- فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، ص 27.
- 11- سورة القمر، الآية 18.
- 12- سورة القمر، الآية 23.
- 13- سورة الشمس، الآية (11-15).
- 14- يوسف واغليسي، تغريبة جعفر الطيار، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط2، قسنطينة 2003. ص 48.
- 15- ينظر عزت عبد العظيم الطويل، دراسات نفسية وتأملات قرآنية، مطبعة الوادي، دط، الإسكندرية 1977. ص 102.
- 16- بوزيد حرز الله، الإغارة، منشورات anep، ط1، الجزائر 2003. ص 110.
- 17- سورة يوسف، الآية (7-10).

- 18- خالد الجبر، تحولات التناص في شعر محمود درويش، ترائي سورة يوسف نموذجاً، منشورات جامعة البترا الخاصة، دط، 2004. ص 93.
- 19- نور الدين درويش، مسافات، مطبعة جامعة منتوري، ط2، قسنطينة 2002. ص 11-12.
- 20- المرجع نفسه، ص 110-111.
- 21- سورة النبأ، الآية (31-34)
- 22- سورة عبس، الآية (26-31)
- 23- يوسف واغليسي، تغريبة جعفر الطيار، ص 49.
- 24- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت. ص 29.
- 25- ناصف مصطفى، الشاعر المعاصر أحمد عبد المعطي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1996. ص 47
- 26- فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، ص 47.
- 27- أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص 134.
- 28- نور الدين درويش، مسافات، ص 18.
- 29- نزار قباني، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، منشورات نزار قباني، ط5، بيروت - لبنان 2000. ص 645.
- 30- ينظر أحمد الزغبى، التناص التاريخي والديني: مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرابية، مجلة أبحاث اليرموك، م 13، ع 1، 1995. ص 177.
- 31- نور الدين درويش، مسافات، ص 34-35.
- 32- الأخضر فلوس، الأنهار الأخرى، منشورات أرستيتيك، ط1، الجزائر 2007. ص 52-53.
- 33- فاتح علاق، آيات من كتاب السهو، ص 24-25.